القضيّـةُ الفلسطينيـــة

تأثرَ أهلُ القرىٰ المجاورةِ لفلسطينَ بالمصيبةِ التي حلَّتْ بأهلها وكانت محنتهم تتجاوزُ حدودَ هذا البلد الغالي ، فالوطن العربي واحد وكلهم من أصلٍ ودين وعشائِرَ ومشاعرَ واحدة ، وتعاون السكان علىٰ طرفي الحدود السورية الفلسطينية مع الشعب العربي الفلسطيني ، ودعموا مقاومتهم للاحتلال البغيض وشكّلوا مجموعاتٍ قتاليةٍ انضمت إلىٰ الثورة الفلسطينية التي كانت تُقَاتِلُ علىٰ جبهتين ، أولاهما الاحتلالُ الإنكليزي الذي دعمَ الصهاينةَ بقواتٍ وعتادٍ وسَهَّلَ عليهم التنقُّلَ ومهاجمةِ المدن القرىٰ الفلسطينية ، والأخرىٰ قواتُ العصاباتِ المجرمةِ من غُلاةِ الصهاينة المجرمين مثل شتيرن والأَرغون والهاغانا والإستير ، الذين ارتكبوا أفظَعْ المجازِرِ بحقِ شعبٍ آمن أعزل وكانت مذابح دير ياسين وقبية ونحالين وبكل قرية ومدينة فلسطينية ، ولم يرحموا صغيراً أو كبيراً ولا امرأةً أو طفلاً ، ويقودهم صهاينة مجرمون حاقدون مثل بن غوريون وشامير ودايان . . .

شارك الجيش العربي السوري الفَتي في حرب عام ١٩٤٨م ،

وأبدىٰ عناصرُهُ وجنوده وقادته بطولاتٍ عظيمةٍ ، وقدَّموا تضحياتٍ جسيمةٍ ، وتقدَّموا في معارك خاضوها عند بحيرة طبريا وجسر بنات يعقوب والحولة وصفد ، لولا المؤامرات التي كانت تحاك عَلَناً وفي الخفاء من قبل الغرب الاستعماري ، وأمام تخاذلِ قياداتٍ عربيةٍ ، وهي تُنَفِّذُ أوامرَ تُملىٰ عليها من هذه الجهات التي أعطت الصهاينةَ وعوداً بإسكانهم أرض فلسطين ، لتكون وطناً يهودياً لهم (كوعد بلفور المشؤوم) وَعَيَّنت حُكاماً علىٰ فلسطين من التابعيةِ اليهودية والمتصهينين؛ لينفذوا المخططات التي أقرَّتها مؤتمراتهم وبروتوكولاتهم.

وبعد احتلال الأرض المقدسة وطرد السكان العرب من أغلب مدنها وقراها ، وارتكاب أبشع الجرائم بحقهم وطرد من بقيَ حياً منهم إلىٰ خارج أرضهم التي وُلدوا وعاشوا فيها حياتهم ، وعمَّروا فيها البيوت والمساجد والكنائس ، وزرعوا الزيتون واللوز والبرتقال والرّمان ، ودَفَنوا فيها أجداداً وآباءً وأمهاتٍ علىٰ مرّ السنين.

كان الشباب العربيُّ يغلي غضباً وعنفواناً ومتأثراً بالأحداثِ وراحوا ينتظمون في صفوف الجيش الوطني الفتي للجمهورية السورية ، وكان الشعب والوطنيون من رجالٍ ونسوةٍ يبذلون الأموال في سبيل تقوية هذا الجيش ، ويمدونه بالسلاح فيشترون البنادق من الأسواق العالمية ، حتى إن النساء قد تبرعن بِحُلِيّهِنَّ من الذهب وغيرِهُ ، وساهَمَ رجالات الوطن الكبار من زعاماتِ

العائلات والأحزاب والعشائر في هذه الحملة المهمة في نهوضِ الجيش وتسليحه.

وأمام عسكرة القرىٰ الحدودية وَتَوافُد الكتائِبِ والسرايا من قوات الجيش السوري الفتي العتيد إلىٰ خطِّ الجبهةِ، أحبَّ شباب هذه القرىٰ الحدودية حياةَ الجندية وتطوّعوا في قطْعاتِه وتعلموا فنون القِتالِ وخُطَطَ الاشتباكِ مع العدوّ، وارتقوا في صفوفه بالرُّتَب المختلفة، وكان منهم العرفاء والرّقباءُ والمساعدين والضباطُ والقادَةُ، وشاركوا في معارِكَ كانت تدور علىٰ حدودِ البلادِ، وصدوا مع أفراد القوات المسلحة هجمات الأعداء بل نقلوا المعاركَ إلىٰ مَوَاقِعه وثكناتِه وكانوا يكبدونه أَفْدَحَ الخسائر، خاصة في معركة السيطرة علىٰ منابع المياه العربية في بحيرة طبريا، ونهر الشريعة المُنْحَدِرِ من جبال لبنان وجبل الشيخ، ومحاولة الصهاينة سرقة هذه المياه وجَرِّها إلىٰ فلسطين المحتلّة عبر قناةٍ حفروها حتىٰ تصلَ إلىٰ المزارع والقرىٰ، والمسابح ولمسافة مئات الكيلو مترات وتروي النقب المحتل، ومع محاولات الأعداء تحويل مجرىٰ النهر إلىٰ هذه القناةِ في بداية الستينيات من القرن العشرين، تصدىٰ لهم أفرادُ جيشنا الباسل ومنعوهم من ذلك، ودارت معارك يومية عند الطرف الشمالي للبحيرة وفي مكانِ حَفْرِ هذه القناة، وكانت مدافعُ الجيش العربي السوري تُحطِّمُ هذه الآليات العاملة في الحَفْرِ وتَحرِقُ الدبابات التي تحميها، وتتصدىٰ للطائرات التي

تُغيرُ علىٰ قطعاتِ جيشنا وتُسقِطُ بعضَها وتُطارِدُها بعيداً ، كما رأينا أسراباً من طائرات الميج السورية تُهاجِمُ زَوارِقَ العدو الحربية في مياه بحيرة طبريّا التي تشارك بهذه الاعتداءات وتقصف الشواطئ وتقتلُ جُنودَ العدوِّ وهم يستعدون للعُدوانِ ، وتُغْرِقُ هذه الزوارِقَ وتَحْرِقُ العديد من الموانئ حول البحيرة وشلَّتْ حركتها وعملها.

وإني أذكرُ مجموعةً من رجالِ القريةِ الكبارِ وهم يراقبون سيرَ المعارك الدائرةِ يومياً حول البحيرة ، وَرَدِّ جنودنا علىٰ العدوان ، وأصبحوا يميزون بين أصواتِ هذه المدافعِ والرشاشاتِ الخفيفةِ والثقيلةِ ، وهي بيد الجنديّ السوري البطل ، حتىٰ إن بعضهم يتهَلَّلُ فرحاً عندما يسمع صوتَ رشاشِ العريف موسىٰ ابنهم ، فيقولون: هذا هو (رشاش موسانا) فهو لا يخطئ أبداً.

انتظَمَ الشبابُ والرجالُ في القرىٰ الحدودية في كتائبِ الحرس الوطني والمقاومة الشعبية. وقدَّمَ لهم الجيش السوري الأسلحة والذخائِرَ وصاروا رَدِيفاً مهماً لهذا الجيش في معاركه المستمرةِ مع عَدُوٍّ طامعٍ مُجرمٍ يريد التمدُّدَ إلىٰ الأراضي العربية التي يَستطيعُ الوُصولَ إليها ، فإن مخططاتهم تقضي بالسيطرة علىٰ البلاد في شرق الأردن والجولان السوري ، وجنوب لبنان حيث المياه ومنابعها والأرض المعطاءة وخيراتها والمرتفعات العالية وأهميتها ، وهم يجنّدون كل إمكانات الموساد الإسرائيلي وأموال الأغنياء اليهود ، ويعتمدون علىٰ حلفائهم الاستعماريين

في الولايات المتحدة الأمريكية والغرب واللوبي الصهيوني.

وكنا نحن الطلاب اليافعين في صفوف الدراسة الإعدادية والثانوية نشارك في كمائن الحراسةِ الليلية تجاه العدوِّ الصهيوني، كي نساهم في مراقبةِ تحركاته واعتداءاته وَرَدِّهِ خاسراً مدحوراً، وكم التَبَسَ علينا الأمرُ عندما مرَّتْ من أمامِنا وحوشٌ مفترسةٌ حسبناها عدواً، وأطلقنا نيراننا عليها من بنادقنا القديمة ذات الثلاث طلقات، وكانت هذه أرحمُ عدوانيَّةً من الصهاينة المجرمين.

قَدَّمَ أهلُ القريةِ والقرىٰ التي حولها علىٰ خطِّ الجبهةِ تضحياتٍ جسامٍ في سبيل القضيَّةِ المَصيريةِ الوطنيَّةِ، وصارت كرومهم وبساتينهم ثكنات للجيش السوري، يتمركزُ فيها ويستظلُّ بأشجارها وتكوِّن ستْراً من مناظير العدوِّ اللئيم ومراصِده واستِكْشافاتِ طائراتِهِ التي لا ينْقَطِعُ طيرانُها فوقهم، وهي تحملُ أحدث الآلاتِ والأسلحةِ التي تلقي منها النيران والمتفجرات علىٰ هذه القرىٰ والتجمعات السكانية، وتوقعُ بهم الخسائر البشرية والمادية.

وكثيراً ما تخرُقُ هذه الطائراتِ المجال الجوي لهذه القرىٰ نهاراً وليلاً، حيث تتسلَّلُ القاذفةُ الليلية (أم كامل) كما يسميها سكان الحدود وتضربُ بقنابلها السكان وكلَّ ما يظهرُ لها من ضوءٍ أو حركةٍ أو إشارةٍ، فتنفَجرُ قذائفُها بالناسِ والبيوت والمزروعات فيستشهدُ رجالٌ ونساءٌ وأطفالٌ، إنها كابوسٌ يومي

يقع علىٰ الأهالي فيهربون إلىٰ المزارع وتحت الأشجار ، كي لا يراهم الطيارون الصهاينة الأشرار وتَقَعُ عليهم مصائبهم وعدوانهم .

قال شيخ القرية محمود : إن هؤلاءِ الأوغادَ الصهاينة يريدون المزيدَ من الأرض العربية بعد احتلالِ فلسطين ، ولا بدَّ من مقاومتهم ودَحْرِهم وتحرير القدس من أيديهم .

ونحنُ عرب سوريون ما زلنا نناضل من أجل نصرة الأخوة الفلسطينيين بعد أن طَرَدْنا المستعمرَ الفرنسيَّ من بلادنا ، وقدَّمنا آلاف الشهداء والتضحيات في سبيل الوطن .

ومازلت أتذكّرُ الرئيس شكري القوتلي رئيس هذه الجمهورية عندما قدِمَ إلىٰ الجبهة وقدَّمَ لسكانها إعانةَ الشتاءِ ، ونُظِمتْ له الاستقبالاتِ اللائقةِ ، وأذكرُ يوم كنت طالباً في الإعدادي ، وأنا أحييه وأهتِفُ له مع زملائي وهو يشكرنا واحداً تلوَ الآخر ، وأهدىٰ بيديه الكريمتين هذه الإعانات للسكان والفقراء وأفراد المقاومَةِ الشعبيةِ .

وأعطت هذه الزيارة الكريمة أثراً واضحاً عند المواطنين قوّىٰ معنوياتهم ، وزاد من أواصر العلاقة بين الأهالي في قرىٰ الجبهة وبين الجيش والحكومة في دمشق ، ولاسيما بعد المشاريع التي أقامتها حكومة الجمهورية العربية المتحدة أثناء فترة الوحدة بين سورية ومصر ، عندما مُدَّت أنابيبٌ لجرِّ المياه لأكثر من عشرين

قرية ومدينة من ينابيع الجوخدار ، وعين ذكر ، وصارت المياه تصُبُّ في كل بيت ومزرعة وثكنةٍ ، وشرِبَ السكان ماءً نظيفاً رقراقاً بدلَ مياه الجمع ، وَوَفّرَ عليهم عَناءَ جلبه من الوديان والينابيع المتفرّقة .

كما دخلتِ الكهرباء هذه القرىٰ ، وأُنشِئتْ المحطاتُ التي تنتج هذه الطاقة الحضارية والضرورية ، وصارت الشوارعُ والبيوت في التجمعاتِ تشِعُّ بالنور ليلاً قُبالةَ المستعمراتِ الصهيونية حول بحيرة طبريّا وفي مدنها ، وهي تَتلألأُ وتشِعُّ بها الأنوار الملونة منذ عشرات السنين .

وانتشرت قرية سكوفيا شرقاً وشمالاً وجنوباً ، وصارت البيوت الجديدة مطلباً للشباب الراغب في الزواج وسط الكروم والبساتين الخضراء ، حيث تحيط بها أشجار العنب والتين والزيتون والرّمان والتوت وحولها الأرضُ الخضراء النضرة الزهور الفواحة .

وكانت القرية تبدو في شهر آذار الجميل والنّوّارُ علىٰ شجر اللوز تكسوها حُلَّةً وهي تلبَسُ ثوباً أبيض وتزهو وكأنها عروسٌ شابةٌ جميلةٌ ذاتُ وجه حسنٍ والعطرُ يفوحُ منها تنشُرُهُ أزاهيرُ اللوزِ الأبيضِ من عناقيدٍ تَتْرَئِبُّ في الهواءِ وتتطايرُ مع نسائِمِهِ الرَّطِبَةِ القادِمَةِ من مياه البحيرة المتلاطمةِ بحبات غُبار الطلعِ المنعش .

ورأيتُها من بُعدِ عشراتِ الكيلو متراتِ من تلةٍ عند مرتفعاتِ

الرّفيد ، في الطريق المتجهةِ غرباً نحو مدينةِ فيق والقرىٰ المحيطة بها ، وقد بَدتْ بيضاءَ تشعُ بلون زهرِ اللوزِ الزاهي ، وكأنَّ عليها ثلجٌ أعطاها لها جبلُ الشيخ المطلِّ من علٍ ، والذي تكسوهُ الثلوجُ طيلة العام ، وقلتُ لرفيقي في الحافلة المتجهةِ نحوها : ما أجملَ منظرها وسط هذه الخمائِلِ المزركشةِ ، قال : سوف تبدو أجملَ وانظرْ عندما تقترب منها وتشمُّ رائحةَ عبَقِ الزهرِ الفواحِ المنتشرِ في أجوائِها التي تنعشُ كلَّ عليلٍ وإنسانٍ وطفلٍ أو شيخٍ هرمٍ.

إنها البلدةُ الشماء (سكوفيا) فلن تغيب عن مخيلتي ما دمتُ حياً.

ورحتُ أنشدُ وأغني :

وزهرُ اللوزِ يُبرِقُ من بعيدٍ ... علىٰ سَقفِ البلادِ فَيَزْدَهِيها
عشقتُكِ بل عشقتُ عليكِ ناساً ... تــراهــم خُلّصــاً لله فيهــا
وكنتِ تُسابقين الأرضَ طُرّاً ... جمالاً في سكوفيا ومن عليها
وريحُ المسْكِ فاحَ بكل جنبٍ ... وطيب الزهرَ جاوَزَ من يليها
وكــان مُقــامنــا فيهــا هنيئــاً ... وخيـرُ العيـش يـومـاً نعتليهـا

وكان مَرْتَعُنا بين الأشجارِ الوارفةِ نلعب ونلهو عندما كنا صغاراً ، أو علىٰ سفوح الوديان المطلة علىٰ البحيرةِ الجميلة ، وأسرابِ الحجلِ من حولنا تغرِّدُ ألحاناً يتجاوبَ معها الصدىٰ بين الجبال ، وكأنها معزوفةٌ إلهيةٌ تشنِّفُ الآذان ، وقطعانُ الماعِزِ والغنمِ تثغو هنا وهناك ، والراعي يعزفُ علىٰ يَرْغوله وهي تَطْربُ

وتأكلُ عُشباً جبلياً شهياً غنياً ، وفي المساء تعطي أصحابها لبناً لذّةً للشاربين.

ومع انتشارِ العِلْمِ وتوسُّعِ معارِفِ الناس ، وقد ساعد علىٰ هذا التطورِ دخولُ عناصرِ الجيش إليها وتبادلهم مع الأهالي الخبرات التي اكتسبوها من تجاربهم المتقدمة في بلادهم ومدنهم ، توسعت مشاريع الأهالي وأنشؤوا المتاجرَ وجلبوا التجارة والتجار من المدن الأخرىٰ.

وزادت إسهامات الحكومة الوطنية في تطوير هذه القرىٰ الحدودية ، وشق الطرقات وتركيب الشبكات الخدمية لسكان المنطقة ، الذين انتظموا في صفوفِ دفاعات الوطن ودعم الجيش العربي السوري ، الذي تسلح بأسلحةٍ أكثر تطوراً وفعالية تجاه عدوٍّ متغطرسٍ ، يتسلح بأعتىٰ وأدق العتاد الفعال الذي يَصِلُ إليه من الغرب الاستعماري واللوبي الصهيوني ، وبُنِيَتْ للناس قرىً نموذجية ووحداتٌ سكنية مزودةٌ بأسباب الراحة والمستلزمات ، وأهم من ذلك أن المواطن السوري صار يشعرُ برَدِّ كرامته وحقوقه التي كانت مهدورة ، في ظلِّ حكومات كانت تتعاون مع الإقطاعيين مثل منطقة البطيحة ومجتمعاتها التي كانت مُسْتَغَلَّةً من قِبَلِ الإقطاعي فؤاد اليوسف.

وهكذا تملّك سُكانها الأراضي بعد تطبيق قوانين الإصلاح الزراعي وتقديم المساعدات والإعانات لهم ، وصاروا أحراراً في ممتلكاتهم وتصرفاتهم ومنتجاتهم ، وتعزز ارتباطُ الفلاح

بأرضه التي يملكها ويدافع عنها بروحه ودمه ، ووفرت لهم ثورة الثامن من آذار المجيدة أسبابَ المشاركة في حكم أنفسهم وتشكيلَ المنظمات الشعبية ، وتعاونها مع السلطات الحكومية؛ لتقوية أواصر التمسك بالأرض والدفاع عنها ضد عدوٍّ لا يتوانىٰ يومياً عن عدوانه عليها.

ولا زلتُ أذكرُ تجربةً من فلاحٍ طموحٍ أرادَ أن يطوِّرَ ويُدْخِلَ زراعاتٍ جديدةٍ إلىٰ هذه المنطقة الغنيَّةِ بمياه الأمطارِ وذات التربة الخَصْبَةِ العميقة ، فأحضَرَ بذارَ القطنِ وأودعه بطن هذه الأرضِ المعطاء ، فنما وتطاوَلَ وأورق وأزهر ، وكأنَّ ينابيع المياهِ تجري حوله أو سواقي نهر الفرات تَرْويه ، ولم يصدِّق الشيخ فوزي والخبراءُ الذين أحضَرهم ما يجري ، فإن القطن يحتاج للسقاية المتواصلة والماء الكثير ، وظهرت خيوط القطن في حاضِناتها مُلَبّدةً بيضاء ، ولكنها أُصيبت بحشراتٍ وأمراضٍ من رطوبةِ الجو وكَثْرَةِ النّدىٰ الذي يصبُّ عليها كلَّ صباحٍ ، ولم تنفَعِ الأدوية التي أحضرَها الخبراءُ في رشِّها علىٰ هذه الغَرْسَاتِ وصارتْ عبئاً علىٰ صاحبها ، وكان لهذه المواد السامة أثرٌ علىٰ خلايا النحلِ الذي اشتهرت بتربيته القرية وشكَّل مأساةً علىٰ النحلِ والمربين عدةَ سنواتٍ خُرِّبَتِ الخلايا وهاجَرَت الملكات بقطعانها إلىٰ الوديان بعيداً عن مصدر الخطر الذي يتهَدَّدُها.

كما أنني ما نسيت الشيخ فارس الرجل الكهل والدَّرْويش عندما حضَرَ مع زوجتِه الشابةِ وأولاده الصغار هارباً من ظُلمِ

الإقطاعي ورجالاته في منطقة البطيحة ، وقد وضع رحاله في زاوية من دارنا وأقام كوخاً يأويه بمساعدةِ والدي ، وكان يعيش علىٰ ما يجودُ به عليه أهل الحارةِ من خبزٍ وطعامٍ ولباسٍ. وقد شَعَرَتْ زوجَتُه بالحَرَجِ؛ لكونهم يعيشون علىٰ الصّدَقاتِ والحسناتِ من السكان.

فقالت له يوماً: أيا زوجي العزيز فمالك تقبلُ علىٰ نفسك العيش علىٰ ما يجودُ به عليك الآخرون ، ألا تستطيعُ أن تكسبَ قوتكَ من عرق جبينك ، فلو احتطَبْتَ وبِعْتَ ما جلبتَ أو زرعتَ وأكلتَ من ثمر أثمرَ وأينعَ خيرٌ لك من هذه العادة التي أكرهها.

تأثرَ الرجلُ وحارَ فيما يفعل وانزوىٰ يُفكِّرُ ماذا يفعل ، كان الجو في أواخِرِ الشتاء ، والمطرُ ما زالَ ينهمر ، وأوائل شهر شباط شهر الخير المدرار ينسكب علىٰ الحقول المزروعة قمحاً بدت طلائعُه تنبتُ وتظهرُ فوق سطح الأرض.

رأىٰ الشيخ فارس مِعولاً في دارنا فَحَمَلَهُ وأرادَ أن يفعل شيئاً ، وجاء إِلىٰ والدي وطلب منه كيساً من بذارِ القمحِ ، لقد عزمَ علىٰ زراعةِ هذه الحبات ولكن أين ، وعندما أعطاه والدي ما أراد وذهب إلىٰ شيخ القرية طالباً منه أن يسمح له بزراعةِ السفحِ المجاور لحقول الفلاحين ، إنه ملك مَشاع وترعاهُ القطعانِ ، فقال له: ولكنك تأخرتَ في مشروعك هذا وقد فات وقت الزرعِ ، ومع ذلك فقد سمح له بأن يذهب وينتفع بهذه

الأرض هذا العام ، وشَجَّعَهُ وَوَعَدَهُ بالمساعدةِ.

ذهب الشيخ فارس متوكلاً علىٰ الله وهو يدعو ربه أن يبارك له عمله هذا ، وَيَمُنَّ عليه بالخير والبِرِّ الذي يحتاجه لإعالة عياله.

راح يضرب الأرض هو وزوجتُهُ وينثر التراب علىٰ الحباتِ ويسويها كي تستقبل قطرات المطرِ ، ولمّا أكمل عمله ونظر إلىٰ ما حرث وزرع وَمَهَّدَ الأرض ، قال لزوجته : عسىٰ ربنا أن يرزقنا قوتَ عيالنا من عملنا بدَلَ مَدِّ يَدِنا لِجُودِ الناسِ علينا ، وراح يرقبها كلَّ يومٍ ويبعدُ العصافير عنها ، حتىٰ لا تنبش حباتِ القمحِ من باطنِ الأرضِ. والسماءُ ترويها بماءٍ لطيف ورَذاذٍ منعِشٍ وتطلعُ الشمسُ بين الفينة والأخرىٰ لتزوّدَ الأرض بما تحتاجُ من الدفءِ اللازمِ لإنبات البذورِ.

وما هي إلا أيامٌ حتىٰ بدأت الحباتُ بالظُّهورِ والتطاوُلِ إلىٰ الأعلىٰ والشيخ يحمدُ ربَّهُ علىٰ كَرَمه ولطفِه به. وزادت عناية الرجل بها حراسة وتعشيباً ، وهي ترفعُ رؤوسها وتكبُرُ وتكثُرُ ورَقَاتُها ، والندىٰ والمطر يغمرها والشمسُ تسطع عليها ، وراح يقرأ عليها أدعية وآياتٍ ليبارك الله له فيها.

وهو يقولُ : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى : ٥].

وجاء شهر آذار شهر الخير والبركة فكانت النبتاتُ قد لحقت ببقيَّةِ الزروع في الحقول الأخرىٰ ، وأزهرت ونبتت سنابلها في

نيسان ، وهو ما يسمونه (أبو السَّبل) وتكونت فيها صفوفٌ من حباتِ القمحِ الغَضّةِ الطرية والشيخ واقف علىٰ تلةٍ يرقبها ويحرسُها ويعتني بها.

وجاء أيار والزرع ينمو ويكبر والحب يتكوَّن ويميلُ لونه للصفرةِ الذهبيةِ ، حتىٰ جاء شهر الحصادِ حزيران ، فتنفسَ الكهلُ فارسٌ الصعداء وهو يرىٰ زرعاً أينع وحباتٍ بارك الله بها ، فتناوَلَ مِنجلاً وراح يحصدها وكانت أول الشمائِلِ في قبضة يده ، فَرَفَعَها ونادىٰ علىٰ المارِّين: هذه شِمَالتي فمن يَشتريها ـ وكانَ الشيخ ذياب قريباً منه ـ فناداه قائلاً إنّها لي ، ولقد اشتريتها بحملين كاملين من حقلي يصلان إلىٰ بيدرك الذي أضعُهُ إلىٰ جانِبِ بيدري ، وهو يقصُدُ التَّبَرّكَ بهذا الشيخ الفقير.

وصار العجوز فارس ينقل حصاده هو وزوجته إلىٰ البيدر الذي كانت نواتُه حملين من حقلِ المُحْسِنِ ذياب ، وصارَ الفلاحون يمرون ويلقون عليهِ أَحْمَالاً ومن كلِّ واحدٍ حملاً ، حتَىٰ صارَ مثلَ بقيَّةِ البيادِرِ يتكدسُ فيه القمحُ ويكبر ، وأولادُه يمرحونَ حوله فرحين مسرورين بما أعطاهم ربّهم ومَنَّ عليهم بخيرٍ يكفيهم طيلة السنة ، ويزيدُ بَدَلَ اعتمادهم علىٰ عطاءاتِ الناس لهم ، واستجداءِ والدهم ما يسدُّ رمقهم.

وطلعَ الخيرُ علىٰ البيادر ومنها بيدرُ الشيخ فارس ، وصار في كوخه بُرٌّ وطحين ومِعْجنٌ وطبقٌ مملوء بالخُبزِ الطريِّ من زرعه وحصيده وَجَنْيه ، بدل الخبزِ اليابس المكسّرِ.

وما هي إلاَّ فترة من الزمن حتىٰ سارع هذا الشيخ وعائلته بالذهابِ إلىٰ بَلدِه البطيحةَ ، حيث أهْله وأصلُه وذلك عندما وَزّعت الحكومةُ أراضي الإقطاعي فؤاد اليوسف علىٰ السكان بموجبِ قوانين الإصلاح الزراعي التي طُبقت في البطيحة ، وصارَ الناس أحراراً في أملاكهم وناتجها من الخضار والفواكه والثمار التي تُنتجُها هذه البلاد قبل غيرها بأشهرٍ ؛ لِدِفءِ مناخِها وخصوبةِ أرضها وكثرة مياهها ، فهي تنخفض عن سطح البحر في غور الأردن .

وكبرَ أبناء الشيخ فارس ، وعَمِلوا مزارعين في أرض البطيحة الخصبةَ ، وكان لهم مزرعةٌ وبيتٌ وعائلاتٌ يتمتعون بكافة حقوقهم الإنسانية والمدنية في ظل حكومات وطنيةٍ قضت علىٰ الإقطاع واستغلاله للناس ، وسيطرتِه علىٰ مقدرات القرىٰ العشرة في أرضٍ تُعَدُّ من أخصبَ تربةٍ بالوطنِ العربي ، وفي مناخ دافىء شتاءً ، فتنتج بواكيرَ الخضار والفواكه وتُروىٰ من مياهٍ غنيةٍ باللحقيات المغذية لهذه النباتات ، كما فتحت الحكومة مدارسَ لاستقبال التلاميذ وتعليمهم وأرسلت البعثاتُ التعليمية من أساتذةٍ ومدرسين وبنت لهم ثورة الثامن من آذار قرىً وبيوتاً ومرافِقَ ومدارِسَ ومستوصفاتٍ ، ومدَّت الطرق والجسور والعَبّاراتِ فوق السّواقي المنتشرةِ علىٰ مساحة هذه المزارع الخصبةِ ، وصار فيها جميعاتٌ فلاحيةٌ ونسائيةٌ وشبابيةٌ .

وأصبح هذا الجيل يغني للوطن والثورة والأرض والحرية ،

التي اكتسبها بعد سيطرةٍ وتحكُّمٍ إقطاعيٍّ جَثَمَ علىٰ صدورِ آبائهم وأجدادهم واستغل عَرَقهم وَجهدهم وسَلَبَ حُرّيتهم وكرامتهم ، علىٰ مدىٰ عشرات السنين .

* * *